وكيف يظلم الإنسان نفسه ؟ يظلم الإنسان نفسه حين تُزيِّن له النفس شهوة فيرتكبها ؛ ليأخذ لذة عاجلة ويحرمها من نعيم دائم. وهناك من يظلم نفسه بظلم غيره ، مثل شاهد الزور [1] ؛ هذا الذى ينصر صاحب باطل على صاحب حق . ومن يشهد الزور يسقط حتى فى عين ذلك الذى شهد له . فإن جاء ليشهد أمامه فى قضية ، فهو لا يقبل شهادته وينظر إليه باحتقار ، وكان يجب على كل من يطلب من إنسان شهادة زور أن يضربه ؛ لأنه يريد أن يسقطه فى نظر الناس ، وفى نظر هذا الذى شهد من أجله ؛ لأن شاهد الزور حين أعان إنساناً على خَصْمه ، فالكل ينظر إلى مثل هذا الشاهد بالاحتقار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

جاءت هذه الآية بعد آية سابقة وُصِفَ فيها المنافقون فى قوله تعالى :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ... ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة]

فناسب أن يقابلهم بالمؤمنين والمؤمنات ، وتلك مناسبة الضد بالضد ؛ لأن قياس الضد إلى ضده يُظهر الأمرين معاً . والمثال قول الشاعر حين

(١) عن أبي بكرة قال قال النبي ﷺ: « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ (ثلاثاً) قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئاً فقال - : ألا وقول الزور . قال : فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧).

يمدح محبوبته فيقول :

فالوَجْهُ مثْلُ الصبح مُبيضٌ والشَّعْر مثل الليل مُسْودُّ

ضدَّان لما استجمعا حَسُنَا والضِّدُّ يُظهر حُسْنه الضِّدُّ

وبعد أن ذكر الحق فضائح المنافقين ومعايبهم ، وحنثهم فيما يحلفون ، وخلفهم فيما يعاهدون ، أراد أن يجعل تقابلاً بينهم وبين المؤمنين والمؤمنات . لكن التقابل هنا اختلف فى شىء ؛ لأنه سبحانه قال فى المنافقين :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ ، وحين تكلم عن المؤمنين قال :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فالمنافقون والمنافقات وصفهم الحق ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أى أنهم كلهم متشابهون وسلوكهم مبنى على التقليد والاتباع ، فهم يقلدون بعضهم بعضاً . وبما أنهم قد أقاموا عقيدتهم على الشر ، فكلهم شر ، ولا يوجد بينهم من ينصحهم بالخير أو يحاول رَدَّهم عن النفاق ، بل هم يمضون فى تيار الشر إلى آخر مدى .

أما المؤمن فعقيدته مبنية على الاقتناع وعلى الخير . فإن وُجد فى مؤمن شر ؛ فَوليُّه من المؤمنين يبعده عن الشر ويعيده إلى طريق الخير ؛ ذلك لأن النفس البشرية لها أغيار متعددة ، ولا يسلك كل مؤمن السلوك الملتزم تمام الالتزام بمنهج الله فى كل شىء . بل هناك خصلة ضعف فى كل نفس بشرية . فإن وُجدَ فى المؤمن ضعف فأولياؤه من المؤمنين يُبيِّنون له نقطة ضعفه ويُبصِّرونه وينصحون له ، ويُرد فى نقطة ضعفه ، والمؤمن أيضاً يُنبِّه غيره ويُبصِّره ، وهكذا نجد أنه فى المجتمع المؤمن ، كل واحد يرد الآخر فى نقطة ضعفه ، وكل منهم ينصح الآخر ويعظه ، ليكتمل إيمان الجميع ، ومَنْ يقصر فى شىء يجد القريب منه ؛ وهو يسد الثغرة الطارئة فى سلوكه .

أما المنافقون فيصفهم الحق ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أى : أنهم جميعاً من بعض ، فلا يتناهَوْنَ عن منكر فعلوه ، ولا يوجد بينهم ناصح .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ لم يبين لنا من المولى ومن الموَالَى ، فكل مؤمن هو ولى وهو موال ؛ لأن الولاية مأخوذة من « يليه » ، أى صار قريباً ، وضدها عاداهُ أى بَعُدَ عنه وتركه . إذن : فالموالاة ضدها العداوة . وفائدة القرب أن يكون الولى نصير أخيه المؤمن فى الأمر الذى هو ضعيف فيه .

فإذا كنت ضعيفاً فى أمر ما ، فأخى المؤمن ينصرنى فيه . وما دام أخى المؤمن ينصرنى فى أمر ما ، فإن صار هو ضعيفاً فى شىء أنصره أنا فيه ، فنتفاعل ونتكامل ويصبح كل منا ولياً ومُوَالَى .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

ولو قيل : « وصَّوْا » لكان هناك أناس يوصون وأناس يتواصون ، لكن الحق قال : ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ ومعناها أن كل مؤمن عليه أن يوصى أخاه المؤمن . فإن كان عندى نقطة ضعف فأنت توصينى وتقول : اعدل عن هذا ولا تفعله فأنت مؤمن . وإن كانت فيك نقطة ضعف أقول لك : لا تفعل هذا فأنت مؤمن .

إذن : فكل واحد منا مُوص ومُوصىً . كذلك الولاية فأنت ولىى ، أى قريب منى تنصرنى فى ضعفى ، وأنا وليُّك ، أى قريب منك ، أنصرك فى ضعفك لأننا أبناء أغيار ؟ وكل واحد منا فيه نقطة ضعف تختلف عن نقطة ضعف الآخر .

والوَلاية تكون أيضاً فى الحق ، فقد أميل إلى الباطل فى نقطة فيقول لى أخى المؤمن : اعدل . وقد يميل هو إلى الباطل فأقول له : اعدل . وهكذا يتكامل الإيمان ؛ ولذلك تجد كلمة الوَلاية بمعنى القرب والنصرة فى قول الحق فى ذاته :

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ .. (٤٤) ﴾ [الكهف]

أى : أن النصر الحقيقى والقرب الحقيقى لله ؛ لأننا نعيش فى عالم أغيار ، فقد تطلب النصر عندى فتكون قوتى قد ذهبت ، أو يكون مالى قد فنى ، أو يكون نفوذى قد انتهى ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو وحده القوى دائماً ، والغنى دائماً ، الذى يُغيِّر ولا يتغير ، وعندما ينصرك الله فهذا هو النصر الحقيقى الدائم لا نصر الأغيار .

وتجد الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [يونس]

أى : أن الحق سبحانه وتعالى جعل أولياء لله .

وكذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا (٢٥٧) ﴾ [البقرة]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى مرة يكون موالياً . ومرة يكون مُوَالَىً ، فإن واليت الله بطاعتك يواليك سبحانه بنصره . ويقول تعالى :

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) ﴾ [محمد]

أى : إذا تقربت إلى الله بطاعته ونصرة منهجه ، فهو يقرب منك فى أزماتك وينصرك ويُثبِّت أقدامك .

إذن : فالولاية فى الأصل هى القرب والتناصر ، ومادام هناك تناصر فلابد أن تكون هناك نقطة ضعف فى مؤمن ، ونقطة قوة فى مؤمن آخر ،

ولكن مَن الذى سيكون فى ضعف دائماً ، أو فى قوة دائماً ؟ لا أحد . إذن : فكل واحد يَنصر ، وكل واحد يُنصر .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ ولم يعين البعض ؛ فكل واحد صالح لأن يكون ناصراً ومنصوراً .

ولكى يتضح المعنى اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾

[الزخرف]

إذن : فقد اعترف الكفار بصدق القرآن وإعجازه ولكنهم لا يؤمنون ؛ لأن القرآن نزل على رسول الله ﷺ ، ولم ينزل على أحد من زعماء قريش ، فيرد الله سبحانه وتعالى عليهم :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ... (٣٢) ﴾

[الزخرف]

وشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل منكم السادة والعبيد ، ويجعل منكم الأغنياء والفقراء ، وذلك فى أمور الدنيا ، فإن كنتم تريدون أن تُقسموا أمور الدين ، فاقسموا أولاً معايشكم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو الذى قسمها بينكم ، وحياتكم فى الدنيا تتبع قوانين الأسباب ، ومن السهل عليكم أن تقسموها بدلاً من أن تأتوا لتقسموا رحمة الله التى هى حق لله سبحانه وتعالى وحده.

ونلاحظ فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ أن البعض مرفوع والبعض الآخر مرفوع عليه ، وما دامت كلمة ﴿ بَعْضٍ ﴾

مبهمة ، فإن كلاً منا مرفوع ومرفوع عليه . ولا يوجد واحد من البشر مرفوع على الجميع ، بحيث يكون وحده مجموعة متكاملة من المواهب . ولكن كلاً منا متميز فى ناحية وغير متميز فى ناحية أخرى ، حتى يكون التلاحم فى الكون تلاحم ضرورة حياة وليس تفضلاً ؛ ولذلك فإن الإنسان المؤمن إذا كان مرفوعاً عليه فى شىء فلابد أن يسأل نفسه : فى أى الأشياء أنا مرفوع فيه ؟ وفى أى الأشياء الناس أحسن منى ؟

ونقول له : أنت تتقن عملاً معيناً ولذلك أنت مرفوع فيه ، ولكن فى باقى الأشياء لا تعلم شيئاً ، فأنت مرفوع عليك . إذن : فأنا فى الشىء الذى لا أجيده مرفوع علىّ ، وفى الشىء الذى أجيده مرفوع على الناس ؛ ولذلك تجد كل واحد فى كون الله مرفوعاً مرة ومرفوعاً عليه مرة ، وهذا هو معنى : ﴿ **وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ** ﴾ .

ولكن الآفة أننا لا ننظر فى الرفعة إلا إلى مجال واحد ؛ هذا غنى وهذا فقير ، ولكننا لا ننظر إلى الصحة ، أو العلم ، أو الأولاد ، أو صلاح الزوجة أو البركة فى الحياة ، وزوايا كثيرة ، وبعضنا إذا أخذ درجة عالية فى زاوية ، فإنه قد يأخذ صفراً فى زاوية أخرى . ومجموع كل إنسان فى نهاية الأمر يساوى مجموع أى إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى . فإن رأيت واحداً متفوقاً عليك فى شىء ، فإياك أن تحسده ، ولكن اسأل نفسك فى أى مجال أنت تتفوق عليه ، وستجد هناك مجالات وزوايا أخرى تكون فيها أفضل من غيرك .

إذن : فكل منا مرفوع ومرفوع عليه ، ولابد أن نفهم أن كل صاحب موهبة يفيد المجتمع بموهبته ، وربما كان نفعه للمجتمع خيراً من نفعه

لنفسه . انظر إلى النجار مثلاً تجده يتقن عمل الأبواب والنوافذ للناس ، أما لنفسه فلا يتقنها ، لماذا ؟ لأن الباب الذى يصنعه لنفسه هو الباب الوحيد الذى لا يتقاضى عليه أجراً.

ولقد ضربنا مثلاً باليد اليمنى واليد اليسرى ، فعند غالبية الناس نجد أن اليد اليمنى تؤدى الأعمال بسهولة ، واليسرى تزاولها ببطء وتعثر ، فإذا أردت أن تقص أظافر يديك مثلاً ، فأنت تمسك المقص بيمينك وتقص أظافر اليد اليسرى بسهولة ، ثم تمسك المقص بشمالك وتتعثر فى قَصِّ أظافر اليد اليمنى .

وهكذا نرى أنه لا يوجد إنسان يستمتع بالمواهب المكتملة . بل هو يتقن شيئاً ولا يتقن أشياء ، ولكن مجموع مواهب كل إنسان ، تساوى مجموع مواهب كل إنسان آخر .

والعدل الإلهى يتدخل هنا ، فنجد - على سبيل المثال - الرجل الغنى الذى يأكل خبزاً من الدقيق الأبيض الفاخر ، ثم يأتى عليه وقت من الأوقات لا يستطيع أن يأكل إلا الدقيق الأسود أو السّن . وتجد من يسرف فى الطعام ؛ لابد أن يأتى عليه وقت ويحرمه الأطباء من الطعام ؛ لأنه أخذ منه أكثر من حقه . وتكون صحته فى أن يُحرم . والحق سبحانه وتعالى وضع نظاماً كونياً يتساند فيه الجميع ؛ لكى يلتحم الجميع . فأنت تحتاج لى فيما أتقنه وأنا أحتاج إليك فيما تتقنه ، وهكذا يتساند الناس ويتكون المجتمع السليم.

ولذلك يقال : الناس بخير ما تباينوا ؛ لأنهم لو لم يختلفوا وأصبحوا أصحاب موهبة واحدة أو عمل واحد لفسد الكون ، كأن نكون كلنا قضاة مثلاً ، فمن الذى يعالج المريض ؟ ومن الذى يحفر الأرض ؟ ومن الذى يحمل الطوب ؟ ومن الذى ينظف الطريق ؟ إننا لو تشابهنا فى الموهبة

أو الثراء أو العمل فلن نجد أحداً يقوم بهذه الأعمال ؛ لأننا لو كنا كلنا أطباء أو مهندسين أو صيادلة أو قضاة أو مشرعين لما استطعنا أن نعيش ، بل لابد أن نختلف لأكون أنا محتاجاً لك وأنت محتاج لى . وبذلك يتماسك المجتمع ، وتُقضَى مصالح الكون بسبب الحاجة ، وليس بالتفضل بين الناس .

ويصف الحق سبحانه المؤمنين بأنهم : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ فإذا فعل مؤمن منكراً ؛ جاء أخوه المؤمن فنهاه عنه ، وإذا لم يفعل معروفاً جاء أخوه المؤمن وأمره بالمعروف . وكل واحد منا ناهٍ عن منكر ، ومنهى عن منكر .

وأنت لا يمكن أن تأمر بمعروف وأنت تفعل عكسه ، أو وأنت بعيد عنه ، فلا يمكن أن تكون فى يدك كأس من الخمر ؛ ثم تطلب من إنسان آخر يمسك كأس خمر أن يحطم الكأس التى فى يده ، لايمكن إذن أن تنهى عن منكر وأنت تفعله ؛ والذى يأمر بمعروف لابد أن يكون فاعله ، والذى ينهى عن المنكر لابد أن يكون بعيداً عنه [1] . فكل مؤمن آمر ومأمور بالمعروف . وناهٍ عن المنكر .

ويضيف الحق وصفاً للمؤمنين : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ وإقامة الصلاة هى إعلان الولاء للخالق الأعلى ، ومن له ديمومة لا نهاية لها . والمؤمنون أولياء بعض ، ولكن مَنْ وليُّهم جميعاً ؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، ولابد أن يلتحموا بمنهج الولى الأعلى الذى لا نستغنى عنه جميعاً .

(١) عن أسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩) . أقتاب البطن : أمعاؤها .

والله سبحانه وتعالى حين وصف المؤمنين بأنهم أولياء بعض، قال لنا:

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ... (٧) ﴾ [محمد]

إذن : فلابد أن نتجه جميعاً إلى الوالي [1] الكبير . فهو سبحانه فوق أسبابنا ، وفوق قوتنا وهو الذي ينصرنا إنْ عزَّتْ ولاية الأفراد المؤمنين لبعضهم البعض ، فنلجأ للولي الكبير . وما دامت الولاية لله الحق ، فلابد أن نستديم في ولائنا له سبحانه وتعالى . واستدامة الولاء لا تكون إلا بالصلاة . وساعة تسمع المؤذن يقول : « الله أكبر » تسرع إلى الصلاة . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى - وهو ربك وصانعك ووليك - قد دعاك إلى الصلاة ، فلابد أن تجيب الدعوة [2] .

فإذا أحببت أن تزيد على الصلوات الخمس وتكون في معية الله دائماً فافعل ، بعد أن تكون قد أدَّيتَ ما فرضه سبحانه عليك من خمس صلوات في اليوم الواحد ، وحين تُعْرَض الصنعة على صانعها خمس مرات كل يوم ففي هذا صلاح الإنسان . وأنت إنْ جئتَ بأي آلة وجعلتَ المهندس الذي صنعها يراها كل يوم خمس مرات فلن تعطب أبداً .

كذلك الإنسان وهو صنعة الله ، إذا عرض نفسه على الله خمس مرات كل يوم فإن العطب لا يدخل إلى نفسه . والصانع من البشر حين تعرض عليه الآلة فيصلحها بماديات ، سواء كان باكتشاف نقص في الوصلات الكهربية أو كسر في أي شيء ، فالمادة تصلح بالمادة ، ولكن الله سبحانه

(١) الوالي : من أسماء الله عز وجل : وهو مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها . قال ابن الأثير : وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل .

(٢) عن أبي هريرة قال : أتى النبي ﷺ رجل أعمى . فقال : يا رسول الله إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد . فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلي في بيته . فرخص له . فلما ولى دعاه فقال : « هل تسمع النداء بالصلاة ؟ » فقال : نعم . قال : « فأجب » . أخرجه مسلم في صحيحه (٦٥٣) .

غيب ، ولذلك فهو يصلحنا بالغيب ، فلا تعرف ماذا فعل بك وأنت واقف أمامه تصلى . لكنك تشعر بلا شك أن شيئاً فيك قد انصلح .

ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر - أى كان هذا الأمر فوق طاقته - قام إلى الصلاة [١] ؛ لأن أسبابه لم تستطع أن تفعل شيئاً فيتجه إلى المسبب ، ويقف بين يديه ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذى يملك الحل. ولذلك كان ﷺ يقول لبلال : أرحنا بها يا بلال [٢] كأن الراحة بها ، أى : اجعل ملكاتنا تعتدل بالصلاة.

لذلك كان لابد أن يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ ﴾ لأن الصلاة استدامة الولاء لله ، والحق تبارك وتعالى يريدنا أن نكون موصولين به سبحانه ، وهذه الصلة تتم بالصلاة فرضاً خمس مرات فى اليوم ، وترك سبحانه الباب مفتوحاً لتطوعك ، فلا تترك ساعة تستطيع أن تكون فيها بين يدى الله إلا فعلت .

ولكى تعرف الفرق بين سيادة الله وسيادة البشر ، فإنك إذا ضعفت أسبابك أمام شىء ، فإنك تطلب أن تقابل من هو أعلى منك مركزاً ، فهو يملك أسباباً لقضاء حاجتك ، فإذا طلبت مقابلته قد يقول نعم ، وقد يقول لا . . فإذا قال نعم ، يسألك عم ستتكلم فيه . . فإذا قلت : إنك ستتكلم فى كذا ، حدد لك الساعة واليوم والمكان ومدة المقابلة .

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يفعل هذا . أنت تذهب له فى أى وقت تشاء ، وفى أى مكان تشاء ، وتتكلم فيما تريد ، وهو سبحانه لاينهى المقابلة أبداً ، أنت الذى تنهى المقابلة مع ربك .

(١) عن حذيفة قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

ويقول رسول الله ﷺ : « لايمل الله حتى تملوا »[1].

والحق جل جلاله لا يشغله شيء عن شيء ؛ ولذلك فهو يقابل كل عباده في وقت واحد ، ويستمع إليهم في وقت واحد ، ويُجيبهم إلى ما يطلبون في وقت واحد.

ويقول سبحانه : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ والصلاة تأتي مع الزكاة باستمرار ؛ لأن في الصلاة استدامة ولاء لله المعطى ، وفي الزكاة استبقاء حياة من يستحق أن تعطيه ، فأنت تعطيه لتستبقى له حياته فيواصل الولاء لله معك ؛ لأنه لا ولاء إلا بحياة ، وأنت تساعده على استبقاء هذه الحياة ؛ ولأن الزكاة إعطاء مال للفقير ، والمال يأتي بالعمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ، إذن : فأنت ضحيت بجزء من وقتك لتتصدق به ، وفي الصلاة ضحيت بوقتك في أوقات محددة.

وفي الأوقات التي تعمل فيها هناك استدامة الولاء ، بأن تخصص جزءاً من أثر هذا الوقت للزكاة ، فلا يكون كل وقتك للعمل ، وإنما يكون وقتك فيه عمل وفيه عبادة ، فحين تخصص جزءاً من مالك الذي سيأتيك من العمل للزكاة تكون قد زكَّيت الوقت بالصلاة ، وزكيت المال بالعطاء .

ويقول الحق : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . وقد ذكر الحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وهذه كلها طاعة لله بإقامة أركان الإسلام ، فلماذا يقول سبحانه : ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ ﴾ ؟

نقول: الله سبحانه ينبهنا إلى أن أركان الإسلام الخمسة وهي : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٣) ومسلم في صحيحه (٧٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، هذه الأركان ليست هى كل الإسلام . بل هى القواعد التى بُنِى عليها الإسلام ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « بنى الإسلام على خمس »[١] . إذن : فهذه هى الأعمدة أو الأسس التى بُنِى عليها الإسلام . ولكن الإسلام هو كل حركة فى الحياة تصلح ولا تفسد ، وتسعد ولا تشقى ، ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن نفهم أن الإسلام ليس فقط بالأسس التى وضعت ، ولكن لابد من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ فيما أمرنا به فى كل حركة الحياة.

وحركات الحياة كلها متكاملة ، وإذا نظرت للشيء الذى تستفيد به تجده وليد حركات متعاقبة ممن سبقوك حتى آدم عليه السلام ، فإذا أخذنا أبسط الأشياء وهى وضع خميرة فى عجينة الخبز ؛ وكيف عرفنا هذا ؟ نجد أننا أخذناها جيلاً عن جيل ، والذى بدأها ألهمه الله بحادث يقع أو بخطأ يتم إلى أن وصل إلى قيمة وضع الخميرة فى العجين ليكسب الخبز طعماً ، ومعظم مبتكرات الحياة قد أتت بالصدفة أو نتيجة أخطاء. فالبنسلين - على سبيل المثال - اكتُشف نتيجة خطأ. وقاعدة أرشميدس التى بنيت عليها نظرية الغواصات اكتشفت نتيجة ملاحظة ألهمها الله لأرشميدس. وحين يأتى ميلاد كشف جديد للبشرية ، فسبحانه يهدى خلقه إلى هذا الكشف ولو كان بخطأ يقع منهم.

ومثال آخر : ما الذى جعلك تفهم أن اللحم حين ينضج على النار أو يُشوى يكون طعمه أحلى ؟ ما الذى جعلك تطهو بعض أنواع الخضراوات ولا تطهو أنواعاً أخرى . كل هذا هدانا إليه الله .

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾ [الأعلى]

إذن : فكل ما ننتفع به فى حركة الحياة ، قد أتانا من أجيال مضت ؛ ولذلك من يأتى ليقول : سأنقطع للعبادة صلاة وصوماً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال فى كتابه العزيز :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝ ﴾ [الذاريات]

نقول : سنوافقك على انقطاعك للصلاة والصوم فقط . ولكنك لكى تصلى ؛ أنت تحتاج إلى طعام يعطيك القوة والقدرة لتصلى وإلا فسيستحيل عليك أداء الصلاة . هَبْ أنك ستأكل رغيفاً من الخبز فقط ، من أين تأتى بهذا الرغيف ؟ من البقال . ومن أين أتى به البقال ؟ من المخبز . ومن أين جاء المخبز بالدقيق ؟ من المطحن . ومن أين جاء المطحن بالقمح ؟ من مخزن الغلال . ومن أين جاء المخزن بالقمح ؟ من المزارع . والمزارع أتى بمحاريث وآلات من المصانع لكى يحرث الأرض ، وجاء بآلات لكى يسقى .

إذن : فأنت لا تستطيع الانقطاع للعبادة إلا إذا استفدْتَ بحركة غيرك ، وكل عمل ذكرت فيه الله هو عبادة ، وكل حركة فى الحياة تعينك على أداء العبادة هى عبادة .

ومثال آخر : لكى تصلى لابد أن تستر عورتك فى الصلاة ، إذن : فأنت تحتاج إلى قماش تأتى به من التاجر ، والتاجر أتى به من مصنع النسيج ، ومصنع النسيج أتى به من مصنع الغزل ، ومصنع الغزل أتى بالقطن من المحلج ، والمحلج جاء به من الحقل ، والحقل جُنِّدَتْ له معامل الدنيا ليعطيك أوفر محصول ، ويقى القطن من الآفات . كل هذه هى من حركات الحياة التى مكَّنَتْكَ أن تستر عورتك فى الصلاة ، وكل منها عبادة .

إذن : كان من الضروري أن يقول ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . بعد ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ . . . فبعد أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة عليهم أن يطيعوا الله فى الإسلام الذى بنى على هذه الأركان .

ثم يقول الحق : ﴿ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ وأولئك إشارة إلى كل المؤمنين والمؤمنات الذين هم أولياء بعض ، والذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ، والذين يؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، هؤلاء سيرحمهم الله . وأيهما أبلغ : أن يقال أولئك يرحمهم الله ، أو يقال سيرحمهم الله ؟

الأبلغ أن يقال : ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ لأن السين تهتك ستار الزمن ؛ وبذلك يحيا المؤمن دائماً فى رحمة الله التى لا تنقطع .

ولذلك حكى الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين الذين يعملون الصالحات فقال : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا (٩٦) ﴾ [مريم]

أى أن الود سيكون مستمراً ، حتى لمن استمع إلى هذه الآية ثم مات ، إنه أيضاً ينتفع بود الله . وأيضاً قال سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى]

ولم يقل : يعطيك ربك ، بل جاء بـ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ ﴾ لترى عطاء الحق مستمراً .

وأنت حين تهدد أحداً لا تقل له : أنا أنتقم منك ، بل تقول : سأنتقم منك ، أى : أن الانتقام سيستمر مع الزمن .

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ تعطى أن صفة الرحمة فى حق الله سبحانه أعلى من صفة الرحمة فى المخلوق [1] ؛ لأن التراحم من الخلق على قدر الأسباب ، أما الرحمة من الحق سبحانه فتكون بصفات الكمال التى لا تتناهى ولا تنتهى. ومن الرحمة ألا يقع داء ، والشفاء أن يوجد داء فيشفى ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ... (٨٢) ﴾ [الإسراء]

والاثنان يؤديان إلى سلامة المجتمع من الأمراض الاجتماعية التى تُشْقى الإنسان ، وهناك سلامة من أول الأمر. وهناك سلامة ليست من أول الأمر. ومن عنده خصلة سيئة - وهى داء - يشفيه منها القرآن ، أما الرحمة فهى ألا يأتى داء ابتداء ، ولذلك فالرحمة ممتدة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ومعنى عزيز : أنه غالب على أمره ، وما يريده يقع؛ ولا يُغلب . ولكن إياك أن تفهم أن ذلك عن جبروت ظالم ، لا ؛ لأنه سبحانه لا يظلم أحداً ، ولأنه عزيز بحكمة . وهناك عزيز بلا حكمة ، تغريه عزته أن يطغى . لكن الله عزيز حكيم ، وعزته ليس فيها ظلم ولا طغيان ، ولكنها بحكمة إلهية.

ويأتى بعد ذلك وعد الله للمؤمنين والمؤمنات بالجزاء والنعيم فى الآخرة ، فيقول الله سبحانه وتعالى:

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها ، خشية أن تصيبه». متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٠) ومسلم فى صحيحه (٢٧٥٢).

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾

والوعد: بشارة بخير يأتي زمانه بعد الكلام. والوعيد: إنذار بسوء يأتى بعد الكلام.

الوعد يشجع السامع على أن يبذل جهده ويعمل؛ حتى يتحقق له الخير الذى وُعد به. والوعيد يعطى السامع فرصة أن يمتنع عما يغضب الله فلا يناله عذاب الله .

على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴾ ثم ذكر العذاب الذى ينتظرهم ، وبعد ذلك قال :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ثم وصف النعيم الذى ينتظرهم ، مع أن الشائع فى اللغة أن الوعد يكون بالخير والوعيد يكون بالشر ، فكان من المناسب فى عرف البشر أن يقول الحق سبحانه وتعالى : « أوعد الله المنافقين » ؛ لأن الذى سيأتى بعد ذلك عذاب ونار وشر ، وأن يقول فى المؤمنين : وَعَدَ اللَّهُ لأن الذى سيأتى بعد ذلك جنة ونعيم وخير.

ولكن الأسلوب جاء مخالفاً للعرف البشرى ، فجاء بكلمة « وعد » ، وهى تقال دائماً للخير فى حديثه سبحانه وتعالى عن المنافقين والمؤمنين ،

واستخدام وعد بالنسبة للمؤمنين والمؤمنات موافق للمنطق البشرى ؛ لأنه وعد بخير.

ولكن بالنسبة للمنافقين فقد جاء الحق سبحانه وتعالى بكلمة « وعد » مكان « أوعد ».

فالذى يتكلم هنا هو الحق سبحانه ، فلا تَقِسْ كلام الله على كلام البشر ؛ لأن البشر يفوتهم فى كلامهم ملاحظ ، ولكنها لا تفوت ولا تخفى على الله ، والبشر يتفاوتون فى الأداء وأساليبه ولكن الحق أسلوبه واحد.

فلماذا جاء سبحانه - إذن - بكلمة « وعد » بدلاً من « أوعد » ؟ نقول: إن الحق سبحانه وتعالى بعد أن عرَّف المنافقين والمنافقات ، ثم تكلم عن جزائهم إن أصرُّوا على نفاقهم ، كان ذلك تحذيراً حتى لا يصروا على النفاق مخافة العذاب الذى ينتظرهم ؛ علَّهم يقلعون عن النفاق وينصرفون إلى الخير من الإيمان.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى حين حذرهم بالوعيد نصحهم ، كما تقول لمن يهمل فى دروسه : سترسب إذا أهملت دروسك . فتكون بذلك قد خدمت إقباله على المذاكرة . وأوصلته بالوعيد إلى أن يتجنب الأمر الذى أوعد به ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

هل الشواظ من النار نعمة حتى يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أى : فبأى نعم ربك تكذب ؟ نقول : نعم إنه نعمة ؛ لأن

الحق سبحانه وتعالى حين يوضح لك: إن خالفت هذا فستذهب إلى النار ، يكون قد قدم لك العظة والنصيحة ، والعظة والنصيحة نعمة ؛ لأنه يجعلك تتجنب طريق النار وتختار طريق الجنة.

إذن: فحين يحذر الله المنافقين والمنافقات بالمصير الذى ينتظرهم ، يكون هذا خيراً ونعمة ؛ لأنهم إن اتعظوا وأقلعوا عن النفاق إلى الإيمان فهم ينجون أنفسهم من عذاب النار ، وفي هذا خير عميم . ولذلك استخدم الحق سبحانه وتعالى كلمة « وعد » ولم يستخدم « أوعد » ، وتكون الكلمة مؤدية للمعنى الذى أراده الله .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ والوعد كما قلنا بشارة بخير مستقبلى ، والوعيد إنذار بشرٍّ يأتى فى المستقبل ، والوعد والإيعاد هما ميزان الوجود دنيا وآخرة ؛ لأنك إن وعدت من يلتزم بمنهج الله خيراً ، استحسن الناس جميعاً أن يصلوا إلى الخير باتباعهم المنهج ، وإن أوعدتهم بشر إن خالفوا منهج الله ؛ نفر الناس من المخالفة والمعصية خوفاً من العذاب وتجنبوا الشر . فإن صدق وعدك لأهل الخير بالخير ، وصدق وعيدك لأهل الشر بالشر ؛ استقام ميزان الحياة.

ولذلك نقول للذى يذاكر : إنك ستنجح ، فإن أتقنت المذاكرة حصلت على المجموع الذى يؤهلك لدخول الكلية التى تختارها ، وإن أهملت دروسك رسبت وفُصلْتَ من التعليم وضاع مستقبلك . هنا وعد ووعيد. إن وفَّيْتَ ما وعدت ووفيت ما توعدت ، استقام ميزان الحياة . ولكن إذا جئت لإنسان لم يذاكر وأنجحته وأعطيته أعلى الدرجات مخالفاً بذلك وعيدك له ، فأنت تهدم قضية كونية يترتب عليها مصالح الخلق كلهم.

وإن وعدت من يحصل على ٩٠٪ مثلاً أنه سيدخل كلية الطب ، ثم أخلفت وعدك فدخل كلية الطب من حصل على ٧٠٪ واستُبعدَ الحاصل على ٩٠٪ بسبب تدخل الأهواء تكون أيضاً قد اعتديت على حَركة الحياة كلها وتفسد قضية العمل الجاد فى حركة الحياة ، وكل من لا يملك القدرة على تنفيذ ما وعد به أو أوعد به ، لايكون لكلامه وزن فى حركة الحياة.

على أنه إذا كان الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى فإنه مختلف مع منطق البشر ؛ لأننا أهل أغيار ، فقد أعد بخير لا أستطيع تنفيذه ، وقد أعد بعقاب ثم أضعف بسبب ظروف معينة فلا أقوى على التنفيذ . إذن : فلكى تستقيم حركة الحياة ، لابد أن يأتى الوعد والوعيد من القادر دائماً ، القوى دائماً ، الموجود دائماً ؛ صاحب الكلمة العليا بحيث لا يوجد شىء يمكن أن يجعله لا يفى بوعده أو لا يُتِمّ وعيده ، فإذا قرأت سورة المسد تجد الحق سبحانه يقول فيها :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾

[المسد]

وقد حكم الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة الكريمة ؛ بأن أبا لهب وامرأته سيموتان كافرين وسيدخلان النار ، ولكن كثيراً ممن كانوا كفاراً وقت نزول هذه السورة مثل : خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل ، وعمرو بن العاص [1] وغيرهم ؛ آمنوا وحَسُنَ إسلامهم وجاهدوا فى سبيل

(١) أسلم خالد بن الوليد فى العام السابع من الهجرة بعد غزوة خيبر . أما عكرمة فقد أسلم عام فتح مكة سنة ٨ هـ . أما عمرو بن العاص فقد أسلم قبل الفتح فى صفر سنة ٨ هـ . انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر (٢/ ٩٨) ، (٤/ ٢٥٨)، (٥/ ٢).

الله ، فلماذا حكم رسول الله بأن أبا لهب وامرأته لن يؤمنا كما آمن عمرو ، وكما آمن عكرمة ، وكما آمن خالد بن الوليد وغيرهم ؟ نقول: إن هذا ليس حكم رسول الله ﷺ ، ولكنه حكم الحق سبحانه وتعالى ، وإذا حكم الله فإياك أن تشُكّ فى هذا الحكم ؛ لأنه لا إله إلا الله وهو على كل شئ قدير.

لذلك جاءت هذه السورة ، وبعدها فى المصحف الشريف فى سورة الإخلاص:

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ ﴾ [الإخلاص]

وما دام الله أحداً فأمره نافذ حتى فى الأمور الاختيارية فى الحياة ، فإذا قال الله : ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ . وإذا وعد بخير فإنه سيأتى لا محالة ، وإذا أوعد بشرّ فسوف يقع حتماً.

إذن: فلكى تستقيم موازين الحياة ، كان لابد أن يأتى الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى حتى نكون على يقين بأنه سيحدث ؛ لأنه لا أحد يشارك الله فى مُلْكه ، ولا يوجد قوى إلا الله ، ولا غالب إلا الله ؛ لأنه هو الله أحد.

وقد يأتى الحق سبحانه وتعالى بسنة كونية واقعة ، فأنت حين تزرع الأرض وتُحسن حَرْثها ، وريَّها ووضع البذور فيها يأتيك المحصول بخير عميم . وإذا أهملت الأرض وتركتها بلا حرث ولا زرع ولا بذور فهى لا تعطيك شيئاً.

إذن : فالسُّنة الكونية هنا أعطت وعداً للذى يجدُّ فى زراعة أرضه بالمحصول الوفير ، وأعطتْ وعيداً للذى لا يُقبل على زراعة أرضه بأنه

لا يحصل على ثمرة واحدة منها . ولو اختلف الأمر ووجدنا من زرع وحرث وسقى لم يحصل على الثمار ، ومن لم يزرع ولم يفعل شيئاً أعطته الأرض من ثمارها الكثير ، لانقلبت المعايير فى الكون ، وما وجدنا أحداً يزرع أرضه.

إذن : فلكى تستقيم سنة الحياة ، إما أن يكون الوعد والوعيد من قادر على التنفيذ لا يضعف ولا يتغير . وإما أن يكون بسنة كونية نراها أمامنا فى كل يوم ولا يقع ما هو مخالف لها . فالذى يجتهد ينجح ، والذى لا يذاكر يرسب . سُنة كونية . لو صدقت مع الواقع يعتدل ميزان الحياة . ولو لم تصدق مع الواقع وتدخلت الأهواء لتجعل من لا يذاكر ينجح ومن يذاكر يرسب ؛ اختلت حركة الحياة المثمرة الناجحة.

إذن : فميزان الوعد والوعيد هو دولاب حركة الحياة ، فإن اختل هذا الميزان وجاء الوعد مكان الوعيد ؛ أى كوفىء الذى لا يعمل وعوقب الذى يعمل فسد الكون . لماذا ؟ لأن كل إنسان يحب النفع لنفسه ، ولا يختلف فى ذلك مؤمن أو عاص أو كافر ، ولكن العاصى والكافر يحبان نفسيهما حبّاً أحمق ؛ فيحققانَ لها نفعاً قليلاً زمنه محدود ؛ بعذاب مستمر زمنه بلا حدود . أما المؤمن فهو إنسان يمتاز بالذكاء وبُعْد النظر ؛ لذلك فهو حرم نفسه من متعة عاجلة فى زمن محدود ، ليحقق لها متعة أكبر فى زمن لا ينتهى.

ولقد ضربنا مثلاً لذلك - ولله المثل الأعلى - فقلنا : هَبْ أن هناك أخوين : أحدهما يستيقظ من النوم مبكراً ، فيصلى ويفطر ويأخذ كتبه ويذهب إلى المدرسة ، ويحسن الإنصات للمدرسين ويعود إلى البيت ليذاكر دروسه . والآخر يظل نائماً يتمتع بالنوم ، ويقوم عند الضحى ،

فيخرج ليتسكع فى الشوارع ، وحين تُحدِّثه نفسه بأى متعة فهو يحققها بصرف النظر عن منهج الله وقيم الحياة.

إن كلا الأخوين يحب نفسه ، لكن الأول أحب نفسه فأعطاها مشقة محتملة فى سنوات الدراسة ؛ لتعطيه راحة ومركزاً ومالاً بقية حياته ، أما الأخ الثانى فقد أحب نفسه أيضاً وأعطاها المتعة العاجلة ولكنه أضاع مستقبله كله ، فلم يَعُدْ يساوى شيئاً فى المجتمع.

إذن : فكل منا يحب نفسه ، ولكن مقاييس الحب هى التى تختلف. فمنا مَنْ يأخذ المقياس السليم ، فيتحمل مشقة قليلة ليأخذ نعيماً أبديّاً ، ومنا من يعطى نفسه متعة عابرة ليفقد نعيماً مقيماً.

والعجيب أنك تجد أن هذه هى سنة الحياة الدنيا ، فلا تجد إنساناً ارتاح فى حياته إلا إذا كان قد أجهد نفسه فى سنواته الأولى ؛ ليصل إلى الراحة بقية عمره ، ولا تجد إنساناً فاشلاً عالة على المجتمع إلا إذا كان قد أخذ حظه من الحياة فى أولها ليشقى بقية عمره.

لذلك يقال دائماً : إنه لا يوجد من يأخذ حظه من الحياة مرتين أبداً ، فالذى يتعب فى أول حياته يرتاح بقية عمره ، والذى يرتاح أول حياته يتعب بقية عمره. والمثل الشائع يقول : من جار على شبابه ، أى : ضيَّعه فيما لا يفيد ؛ جارت عليه شيخوخته. والقائمون على الأمر عليهم أن ينبهوا المقبلين على الحياة بالوعد والوعيد حتى يستقيم أمر حياتهم ، وعليهم ألا يُؤجِّلوا الوعد إلى أن تنضج الثمرة. ولا الوعيد إلى أن يحدث الشر ويقع. وعلى كل ولى أمر ؛ فى أى مكان ؛ أن يراقب حركة المقبلين على الحياة من أبنائه أو من يتولى أمرهم ، فيشجع ويعد المجتهد ، ولا ينتظر

حتى ينجح ، بل لابد من الوعد لكى يتم الاجتهاد . ولابد من الوعيد قبل أن يرسب الابن أو يضيع حياته ، فلا ننتظر حتى يفسد الإنسان ثم بعد ذلك نتوعده ؛ لأن الوعد والوعيد هما اللذان يَزِنَانِ حركة الحياة.

ولكن إذا رأينا فى مجتمع ما أن الذى يعمل لا يأخذ شيئاً ، والذى لا يعمل يأخذ كل شىء ، نعرف أن مقاييس العمل قد اختلت. وأن المتاعب قد بدأت فى المجتمع ؛ لأن الذى يعمل حين يجد أن العمل لا يوصله إلى شىء فهو يوجه حركة حياته إلى غير عمله ، فيبذل جهده كله فى النفاق والرياء ، وقَلْب الحقائق وإرضاء الذى يملك الأمر . وتكون النتيجة هى فقدان المجتمع لقيمة العمل فيصبح المجتمع بلا عملٍ منتج ، ويصير مجتمعاً بارعاً فى النفاق والرياء وضياع الحق.

وقد وضع الحق سبحانه وتعالى مقياس حركة الحياة فى الوعد والوعيد ؛ فلا تُعْط حافزاً إلا لمستحق ، ولا مكافأة إلا لمجتهد ؛ ولكنك إذا بعثرت الحوافزَ على المنافقين ، والذين يحققون لك أهدافك الشخصية ، كأن يخدموك فى بيتك أو يقضوا لك مصالحك الخاصة ، ومنعت الحوافز عن الذى يعمل فى جد ، تكون بذلك قد أفسدت حركة الوعد والوعيد ؛ فتختل حركة الحياة فى المجتمع ؛ لأن حركة كل إنسان يتقن العمل ويجيده ، هى حركة تنفع المجتمع كله ، بصرف النظر عن صاحب الحركة نفسه ، فإذا وُجد عامل نشيط أنجز مصالح عشرات الناس ، أو موظف مخلص ارتاح كل من يتعاملون معه، فإنْ أضعْتَ أنت هؤلاء ، فكأن المجتمع هو الذى خسر.

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى فى سورة الكهف - ومعنى الكهف مغارة فى جبل ، والحقائق أيضاً لها كهوف - حين ضرب سبحانه وتعالى مثلاً عن

ذى القرنين قال :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) ﴾ [الكهف]

فما هو الذكر الذى يعنيه الله سبحانه وتعالى هنا ؟

بعض الناس يحاول أن يُدخِلَ نفسه فى متاهة بالسؤال عمَّنْ يكون ذو القرنين ، هل هو قورش ؟ أو الإسكندر الأكبر أو غيرهما ؟ نقول : إن هذا لا يعنينا ، بل ما يعنينا هو أن نلتفت إلى أن ذا القرنين هو إنسان مكَّنه الله فى الأرض [1] . وهذا ينطبق على كل إنسان مكَّنه الله فى الأرض ؛ فى أى زمان ، وفى أى مكان. ومهمة من يمكنه الله فى الأرض ألا يكتفى بعطاء الله من الأسباب ، بل عليه أن يُولد من الأسباب قوة ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) ﴾

[الكهف]

مهمته - إذن - أن يثيب من يحسن عمله ، ويعاقب من أساء عمله ، وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ﴾ [الكهف]

وأول ما يجب أن يهتم به كل مُمكَّن فى الأرض ، بعد توليد الطاقة من الأسباب ، هو معاقبة الظالم لتستقيم الأمور بالضرب على يده . وفى هذا

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٠١) : « قوله ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ ﴾ أى : أعطيناه مُلكاً عظيماً مُمكَّناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد وخضعت له ملوك العباد؛ وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها ».

إصلاح لحركة الحياة فى الدنيا ، أما فى الآخرة فللظالم عذاب آخر ، ذلك أن الذين يعيشون فساداً فى الأرض لا يمكن أن نتركهم لعذاب الآخرة ؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة . ولو تركناهم ؛ ولم نضرب على أيديهم ؛ لملأوا الأرض فساداً . والفساد فى المجتمع لا يصيب المفسد فقط ، ولكن يكتوى به المجتمع كله.

إذن : فلا بد أن نُعجِّل لهم بالعقوبة فى الدنيا ، لنحمى المجتمع من الفساد ، ثم يعذبهم الله فى الآخرة ، وهو سبحانه لم يؤمنوا به ، ولم يحسبوا حساب لقائه يوم القيامة ، وأما من آمن وأصلح فى المجتمع وصلح المجتمع بإيمانه ، فلابد أن نجازيه خيراً ونشجعه. هذا هو قانون صلاح الكون ، وتلك هى معاييره.

وكما قلنا ، يشترط فيمن يقوم بتنفيذ الوعد والوعيد القدرة الدائمة وعدم التغير والوجود الدائم ، فإذا كانت القدرة مطلوبة ، فلا يوجد أقدر من الله ، أمّا التغير فالله يُغير ولا يتغير ، وأما البقاء فلا بقاء ولا دوام لغير الله ؛ ولذلك نجد أن المؤمن الحق هو من يعلم أن وعد الله لا تمسُّه الأغيار ، أما وعد البشر فهو عُرْضة للأغيار . لذلك يطلب منك الحق أن تقول : " إن شاء الله " حين تعد بشئ لتكون صادقاً. ويقول سبحانه :

﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَداً (٢٤) ﴾ [الكهف]

وليس معنى هذا أن نمتنع عن التخطيط ووضع خطط لعام قادم أو لخمس سنوات قادمة ، ولكن قل : إن شاء الله سوف أفعل ذلك غداً ، و: إن شاء الله سأفعل كذا فى العام القادم ؛ لأن الذى تَعدُ به ، قد يأتى وقت الوفاء ولا تجد عندك القدرة على أن تفعله.

فإذا قلت – مثلاً – لإنسان : سنتقابل غداً فى مسجد السيدة زينب رضى الله عنها ونتكلم فى موضوع كذا . هل أملك أن أعيش لغد ؟ أو يملك مَنْ وعدته أن يعيش لغد ؟ أو أملك أن يظل سبب اللقاء موجوداً ؟ يجوز أنى كنت سأقابله لأقترض منه عشرة جنيهات ، وجاءنى مال فى أثناء الليل ، أو غيَّرت رأيى .

إذن : فساعة تقول " سأفعل ذلك غداً " ، قل : " إن شاء الله " ؛ لأنك لا تملك شيئاً من أسباب الفعل . فكل فعل إنما يحتاج لفاعل وأنت لا تضمن بقاءك كفاعل .

ويحتاج كل فعل إلى مفعول يقع عليه ، وأنت لا تضمن بقاء المفعول ، وكل فعل يحتاج إلى قوة ليتم ، وأنت لا تضمن بقاء قوتك ؛ فيجوز أن تمرض ولا تقدر على الحركة . كذلك يحتاج كل فعل إلى سبب كى تفعله ، وقد يتغير السبب .

إذن : فأنت لا تضمن شيئاً من أسباب الفعل ؛ لذلك لا تقل سأفعل ذلك غداً ؛ لأن الذى يملك أن يبقيك لغد ، أو يُبقى السبب أو يُبقى القدرة هو الله ، إذن : فكل شئ نقوله لا بد أن نقول : "إن شاء الله" ؛ لأنه سبحانه وتعالى وحده الذى يملك عناصر الفعل .

ولكن إذا كان الذى وعد هو الحق سبحانه وتعالى ، فوعده محقق التنفيذ ؛ لأنه باق لا يموت ، قادر دائماً لا تضعف قدرته ، فعَّال لما يريد .

وبعد أن تكلم الحق جل جلاله عن المؤمنين والمؤمنات بأنهم أولياء بعض ، وأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، وقد وعد سبحانه بأنه سيرحمهم . فكيف ستكون هذه الرحمة ؟

لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾

إذن : فالحق سبحانه وتعالى وعد المؤمنين والمؤمنات بالجنة ، والجنة تطلق على البستان والأماكن الجميلة تملؤها الزهور والأشجار ، وهذه عامة للمؤمنين يتمتعون بها جميعاً ، ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ وهذه المساكن زيادة على هذه الجنة ، وهنا وعد من الله لكل مؤمن بجنة خاصة بمفرده يكون له فيها مسكن طيب .

إذن : فعندنا جنات ، وهى لجميع المؤمنين ، ثم مساكن طيبة ، أى مسكن طيب لكل مؤمن ، وما هو الطيب فى هذه المساكن ؟

لنا أن نلاحظ أن الإنسان يحب الشيوع أولاً ، ثم يحب الانكماش ثانياً ، وإذا أراد أن يملك فهو يريد أن يملك مكاناً متسعاً خاصاً به ، ثم يخصص فى هذا المكان مأوى طيباً خاصاً به .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ أى : ليس فيها ما يسئ أو يضايق ، بل كل ما فيها يملأ النفس بالسرور والبهجة . وكلمة "جنة" هى المكان الذى فيه زروع وخضرة ، وهذه الزروع تسترك وتخفيك عن الأعين ، أو أنها تسترك فلا تحتاج إلى أن تخرج منها ؛ لأن فيها كل مقومات حياتك من طعام وشراب . والحق سبحانه وتعالى أطلق لفظ " الجنة" على بساتين الأرض ، فقال :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ... (٢٦٦) ﴾ [البقرة]

ويقول تعالى أيضاً :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ... (١٧) ﴾ [القلم]

وعندما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة الجنة فى الآخرة ؛ كيف بيَّنها لنا سبحانه مع أن الجنة فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؟

نقول : الوجود المعروف فى الكون هو الوجود الذى تراه أو تسمعه ، وفى هذه الحالة يكون الوجود أوسع ؛ لأنك ستسمع الذى رآه غيرك حين يقصه عليك . إذن: فالسماع أوسع من الرؤية لأنه يأخذ مجالك ومجال غيرك . فأنت إذا قلت : إنك ذهبت إلى نيويورك مثلاً تكون قد رأيت ، فإذا لم تذهب ونقل إليك أحد أصحابك صورة هذه المدينة ، تكون دائرة معلوماتك أوسع ؛ لأنك أضفت إلى علمك ما رأيته وما رآه غيرك . وأما الأشياء التى لا تخطر على بال بشر ، فهى أوسع كثيراً مما ترى وتسمع ؛ لأنها أشياء فوق الحصر .

والكلمات توضع لمعان معلومة ، فألفاظ اللغة لا بد أن توضع لمعان مرت على العين ، أو مرتْ على السمع ، أو مرت على الخاطر . فقبل أنْ يخترع التليفزيون لم يكن له اسم ، إذن : فلا يمكن أن يكون هناك اسم ، إلا إذا كان هناك وجود أولاً ، ولكن قبل الوجود لا يكون هناك فى اللغة ما يعبر عن شىء غير موجود . ولكن الألفاظ تضاف إلى اللغة بعد وجود الشىء . وهذه مهمة المجامع اللغوية فى العالم . فالأشياء توجد أولاً ، ثم تجتمع هذه المجامع لتختار لها أسماء .

ولكن الجنة فى الآخرة سيكون فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، فليس عندنا ألفاظ تعبر عما فى جنة الآخرة ،فإذا أضفنا إلى ذلك" ولا خطر على قلب بشر" تكون اللغة عاجزة تماماً عن أن تعبر عما فى جنة الآخرة .

وسبحانه وتعالى حين يريد أن يعطينا صورة عن الجنة التى وعد بها المتقين فهو يوضح : أنتم لا تستطيعون أن تأخذوا هذه الصورة من لغتكم ؛ لأن لغتكم قاصرة فأنتم لم تروا هذه الأشياء ، ولم تسمعوا عنها ولا تستطيع عقولكم أن تستوعب ما فى جنة الآخرة ؛ لأن فيها ما لم يخطر على قلب بشر . ولذلك فهو سبحانه وتعالى يعطينا فقط مثلاً ليقرب لنا الصورة فلا يقول الجنة ، وإنما يقول :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ... (١٥) ﴾ [محمد]

أى : أن هذا مثل فقط يقرب الصورة ، ولكنه ليس حقيقة ما هو موجود فى الجنة .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ و ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ جمع "جنة" . ومادة الجيم والنون هذه مأخوذة من الستر والتغطية . اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) ﴾ [الأنعام]

يعنى : ستر وأظلم ، والجنون ستر العقل . والجنة تستر من فيها ؛ لأن أشجارها كبرت ونمت وترعرعت . بحيث يكون من يسير فيها مستوراً بأغصان الشجر وأوراقه ؛ فلا يراه أحد . ويكون مستوراً فى كل مطلوبات حياته . فلا يحتاج أن يخرج منها ؛ لأن فيها كل مطلوبات الحياة من الماء والطعام والمكان يجلس أو يتريض فيه ، وغيرها من النعم التى أنعم الله بها عليه .

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد وعد المؤمنين والمؤمنات جنات ، فإن المؤمنين جماعة ، والمؤمنات جماعة ، والموعود به جنات جمع ، وتقابل الجمع بالجمع يقتضى القسمة لآحاد ، فيكون المعنى : أن الله وعد كل مؤمن جنة ، ووعد كل مؤمنة جنة ، والأفراد ستتكرر .

إذن : فالموعود به جنات لا بد أن تتكرر ، فإذا قسمناها عرفنا نصيب كل مؤمن ومؤمنة ، تماماً مثلما يقول الأستاذ لتلاميذه : أخرجوا كتبكم . و"أخرجوا" أمر لجماعة ، وكتبكم جمع ، أى : أن يخرج كل تلميذ كتابه . وقول المعلم " أمسكوا أقلامكم" يعنى : أن يمسك كل تلميذ قلمه .

إذن : فقول الحق سبحانه ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ أى : أن لكل واحد جنة . ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة الرحمن :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ [الرحمن]

وهنا لا بد أن ننتبه لمعطيات الألفاظ فى سياقها ومقامها ؛ فسورة الرحمن لا تتكلم عن الإنس فقط ، وإنما تتكلم عن الإنس والجن . فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ[1] مِّن نَّارٍ (١٥) ﴾ [الرحمن]

وكذلك قوله جل جلاله :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ (٣١) ﴾ [الرحمن]

إذن : فيكون للإنس جنة وللجن جنة ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ [الرحمن]

(١) **الصلصال** : الطين اليابس الذى يصلُّ من جفافه أى يُصدر صوتاً . **المارج** : الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد .

من خاف مقام ربه من الإنس له جنة ، ومن خاف مقام ربه من الجن له جنة .

ويمكن أن يكون المعنى أن لكل واحد جنتين ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى علم أزلاً ما سيصير إليه أمر عباده من التقوى أو الفجور ، ولكنه تبارك وتعالى لم يخلق للمتقين جنات تكفيهم وحدهم ، أو يخلق للكفار ناراً تكفيهم وحدهم ، بل خلق لكل واحد من خلقه إلى أن تقوم الساعة جنة ، ولكل واحد من خلقه إلى أن تقوم الساعة ناراً[1] ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة ؛ بقيت الجنات التى خلقت ولم يدخلها أحد ؛ لأن أصحابها من أهل النار ، فيقوم الحق بتوزيعها على المؤمنين أصحاب الجنة ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف]

أى : أنها لم تكن مخلوقة لكم ، ولكنكم ورثتموها ؛ لأن أصحابها من أهل النار[2] .

ونزيد الأمر هنا توضيحاً ، فالقرآن الكريم له أسلوب مميز ؛ لأن الذى يتكلم هو الله سبحانه وتعالى . ولذلك فإن كل لفظ من ألفاظ القرآن الكريم يأتى مطابقاً للمعنى تماماً . وفى اللغة ، قبل أن تتكلم لا بد أن تكون عالماً بمعنى اللفظ . وأن يكون محدثك أيضاً عارفاً معناه حتى يستطيع أن يفهمك . فإذا قلت لإنسان مثلاً : أحضر لى كوباً من الماء لأشرب ، فلا بد أن يكون عارفاً لمعنى الماء ومعنى الكوب ، وإلا فإنه لن يفهم .

---

(١) عن أبى هريرة قال قال النبى ﷺ : « لايدخل أحد الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ، ليزداد شكراً ، ولايدخل النار أحد إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٦٩) وأحمد فى مسنده (٢/ ٥١٢) والجنة والنار منوطان باختيار الأعمال.

(٢) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « مامنكم من أحد إلا له منزلان : منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار . فإذا مات فدخل النار ، ورث أهل الجنة منزله . فذلك قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ » أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٣٤١) . قال البوصيرى فى زوائده : « إسناده صحيح على شرط الشيخين » .

إذن : فبالتخاطب توجد المعانى أولاً ثم توجد لها الألفاظ ؛ ولذلك قبل أن يتم اختراع التليفزيون لم يكن المعنى موجوداً ، وعندما اخترع وفهمنا معناه وضع له الاسم . فإذا وجدت لفظاً فى اللغة ، فاعلم أن المعنى قد وجد أولاً قبل أن يوضع اللفظ أو الاسم ، ولعل هذا هو أكبر دليل لغوى ضد من ينكرون وجود الواجد الأعلى .

نقول لهم : إن الله موجود فى كل لغة ؛ وبما أن المعنى فى اللغة يوجد أولاً . فوجود الله سبحانه وتعالى سابق لمعرفتنا باسمه سبحانه وتعالى ؛ لأن الاسم لا يمكن أن يوجد إلا بعد أن يوجد المعنى ، وما دمت قد نطقت بالاسم ، فهذا دليل على أن الله موجود . إذن : فقولك : إن الله غير موجود باطل ؛ لأنك ما دمت قلت : " الله " ، ووجد لفظ الجلالة فى لغتك؛ فلا بد أن الله سبحانه وتعالى موجود قبل وجود لفظ الجلالة . والكفر طرأ على اللفظ ، فحاول أن يستره ؛ ولذلك سمى الكفر ستراً لوجود الله . والستر لا يكون إلا لموجود .

إذن : فالذى كفر ، ستر موجوداً ؛ فأعطى دليل الإيمان ؛ لأنك أيها الكافر - والعياذ بالله - تعرف لفظ الله فى لغتك ، ولو لم يكن الله موجوداً ما وُجد لفظ «الله »سبحانه وتعالى فى اللغة .

إذن : فوجود الله سابق لمعرفتنا اسم الله ، ومحاولة ستر ذلك بالكفر إنما هى دليل على وجود الله ؛ لأنك لا تستر إلا ما هو موجود .

ولفظ الجنة فى القرآن الكريم أطلق على معان كثيرة ، فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) ﴾ [القلم]

وقوله جل جلاله :

﴿ جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل ...(٣٢) ﴾ [الكهف]

إذن : فالجنة أطلقت فى القرآن على المكان الذى فيه زروع وثمار وأشجار ، فهو يحجب من دخله ، أو يمنع الإنسان بالخير الذى فى داخله من الحاجة للخروج إلى مكان آخر ؛ لأن فيه كل مقومات الحياة . وحين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبشرنا بشىء فى الآخرة ، لا بد أن يشبهه لنا بشىء نفهم معناه فى الدنيا ؛ لأن اللغة مكونة من ألفاظ وأسماء سبقتها معَان حتى نستطيع أن نفهمها ، ولذلك إياك أن تفهم أن جنة الدنيا هى جنة الآخرة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يستخدم اللفظ الذى تفهم أنت معناه . ولكن جنة الآخرة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ولكن من أين نأتى بالألفاظ التى يمكن أن تعبر لنا عن ذلك ؟ إن اللفظ لا يوجد إلا إذا كان المعنى موجوداً أولاً ، ومن يستطيع أن يأتى بلفظ لم تره عين ، ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر ؟ مستحيل ؛ لأن المعنى غير موجود .

ولذلك ينبهنا الحق سبحانه إلى هذه النقطة ، ويوضح لنا أنه يعطينا معنى تقريبياً حتى نستطيع أن نفهمه ؛ فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ...(١٥) ﴾ [محمد]

أى : أنها ليست هى ، ولكنه مثل فقط ؛ يقرب المعنى إلى ذهنك . خذ صورة من المجتمع الذى تعيش فيه ، أنت تحتاج إلى مسكن لتسكن وتستريح فيه من عناء الحياة . وهناك من عنده مسكن من حجرة واحدة ، فإذا ترقى يكون المسكن من حجرة وصالة أو حجرتين وصالة ، ثم بعد ذلك

يزداد الرقى ، فيبحث عن شقة واسعة ، فإذا ارتقى كان له مسكن خاص (ڤيلا) ، فإذا ارتقى جعل حول مسكنه حديقة ، وهكذا يزداد الرقى . إذن : فالمسألة لم تَعُدْ مكاناً تأوى إليه فقط ،بل ترتقى فى الإيواء كلما ارتقيت فى الحياة. فتتحقق لك المتعة فى الإيواء ، وهذا موضوع آخر.

ولهذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ أى : هناك جنات وهناك مساكن ؛ لأن الإنسان يحب فى بعض الأوقات أن يجلس بمفرده وحوله المتعة التى تخصه ، وفى أحيان أخرى يحب أن يجلس مع الناس فى مكان جميل ؛ مثلما يحدث فى الأعياد والمناسبات ، عندما نخرج إلى الحدائق والبساتين ، ونجلس معاً ، فكأن الجنات هى للرفاهية الزائدة ؛ عندما تحب أن تجتمع مع الناس ؛ أتمتع بها أنا وأنت وغيرنا . أما المساكن فهى للخصوصية . فيكون لكل واحد مكان خاص يجلس فيه ويتمتع بما حوله.

إذن : فالجنات صورة من البساتين ، ولكنها ليست مصنوعة بالأسباب ، بل هى من صناعة المسبب جل وعلا.

ونحن حينما نذهب إلى بيت إنسان ثرى ، قد نجد أن للبيت حديقة ؛ يشرف عليها بستانى متمكن من عمله ؛ ويقوم بتنسيق الزهور والأشجار بشكل يناسب ثراء المالك . ويكون إعجابنا فى هذه الحالة بالحديقة إعجاباً كبيراً ، بحيث نجلس فيها ، ونكره أن نغادرها ، فإذا كان هذا هو ما يحدث بقدرات البشر ، فكيف بهذه الحدائق التى صُنعت بقدرة الله سبحانه وتعالى ؟ وكيف يكون جمالها وحلاوتها والمتعة فيها ؟

إن الذى وعدنا بهذه الجنات هو الحق سبحانه وتعالى . وهو قادر على أن ينفذ ما وعدنا به ، من جنات فيها من الكماليات والرفاهية مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . وجعل هذه الجنات واسعة شاسعة ، فيها زروع وأزهار وأشكال ؛ تسرُّ العين بجمالها ، وتمتع

اللمس بنعومتها ؛ وتملأ الأنوف برائحتها الزكية . ومن ميزات جمالها أن الأنهار تجرى من خلالها ، ولكنها لا تجرى من فوقها بل تجرى من تحتها ، ومنابعها من مكان آخر ، أو تحتها ، ومنابعها ذاتية ، أى ينبع من نفس المكان [1] . وكأن كل نهر ينبع من تحت جنة خاصة به . وإذا أردت أن تعرف جمال هذه الأنهار ؛ فهو جمال قد صنعه الحق سبحانه وتعالى .

وإذا كنا فى حياتنا نرى أن لكل نهر شاطئين ، فإن أنهار الجنة تجرى من غير شواطئ ؛ وإنما يمسكها الذى أمسك السماء أن تقع على الأرض [2] ، ثم تجد الأنهار قد تشترك فى المجرى ؛ نهر اللبن ، ونهر العسل ، ونهر الماء ، ونهر الخمر [3] ، وكلها تجرى فى مجرى واحد ولكنها لا تختلط ببعضها البعض ، فكل منها منفصل ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو الصانع وتبارك من صنع .

ويعطينا سبحانه وتعالى بعد كل ذلك ، ميزة الخلود فى هذه الجنات فيقول : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ونحن نعلم أن المتعة فى الدنيا قد توجد للإنسان ، ولكنها لا توجد خالدة أبداً ؛ فقد تزول عنك النعمة وتذهب المتعة ؛ كأن تصاب بكارثة مالية مثلاً أو تخسر خسارة كبيرة فى تجارتك أو غير ذلك ، وقد تزول أنت عن النعمة بالموت .

(١) ورد فى القرآن قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ ٣٥ مرة ، وورد قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ﴾ مرة واحدة فى [التوبة : ١٠٠] .

(٢) وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج: ٦٥] .

(٣) فهى أنهار أربعة : نهر لبن فى غاية البياض والحلاوة والدسومة ، ونهر عسل فى غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح ، ونهر ماء غير آسن أى غير متغير الرائحة ، ونهر خمر لا تغتال العقول . قال صاحب كتاب « حادى الأرواح » (ص١٧١) : « تأمل اجتماع هذه الأنهار الأربعة التى هى أفضل أشربة الناس ، فهذا لشربهم وطهورهم ، وهذا لقوتهم وغذائهم ، وهذا للذتهم وسرورهم ، وهذا لشفائهم ومنفعتهم » .

ولكنك فى جنات الآخرة تستمتع بقدر ما فيها من كمال وجمال ، ويزيدك الله فيها بأن يعطيك الخلود ، فلا تفارق النعمة ولا تفارقك ؛ لأنه ليس هناك أغيار ، وليس هناك موت.

وكل إنسان في الدنيا يتمتع على قدر قدراته ، وتصورات الخلق لأنواع النعيم تختلف باختلاف بيئاتها ومقاماتها ، فقد تكون من الفلاحين ؛ وكل متعتك أن تجلس على مصطبة أمام بيتك ، وقد يكون عند إنسان آخر بيت فيه صالون كبير ، والثالث له بيت فيه عدة صالونات ، فكل واحد على قدر إمكاناته فى الدنيا ، ولكننا فى الآخرة نتمتع كلنا على قدر قدرات الحق سبحانه وتعالى ، ويكون متاعنا بقدرة لا تفوقها قدرة ، ويكون الجزاء بقدر ما فعلْتَ من خير فى الدنيا ، واتبعت منهج الله .

إذن : فأنت الذى تحدد المساحة التى لك فى الجنة ، وتحدد المسكن وأنواع النعيم بقدر عملك.

ثم ما الذى يهددك فى نعيم الدنيا ؟

الذى يهدد الناس فى الدنيا أحد شيئين : إما أن تزول عنهم النعمة فيفتقروا ، وإما أن يزولوا هم عن النعمة بالموت . ولكن نعمة الآخرة ليس فيها هذا التهديد . إنها النعمة الخالدة وأهل الجنة فيها خالدون . ولذلك يقال : يا أهل الجنة ، خلود بلا موت ونعيم بلا بؤس[1] .

ولقد زاد الحق تبارك وتعالى فى وصف الخلود فقال : ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** ﴾ والخلود بقاء طويل جداً ، والأبدية لاتنتهى . وسبحانه حين تكلم

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة عن النبى ﷺ : « ينادى مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً . وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً . وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً » فذلك قوله عز وجل : ﴿ **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ [الأعراف: ٤٣] أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٣٧) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣١٩) (٣/ ٣٨ ، ٩٥) والترمذى فى سننه (٣٢٤٦) .

عن الخلود استثنى فيه ، فقال سبحانه و تعالى :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ... (١٠٨) ﴾ [هود]

أيُّ سماء وأيُّ أرض تلك التى تحدَّث عنها الحق سبحانه وتعالى ؟ هل هي السماء التى نراها ؟ إننا نعلم أن الأرض التى نعيش عليها ستبدل وأن السموات ستمور [1] . ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يتحدث عن السموات والأرض بالنسبة للآخرة . فهو يتحدث عن السموات والأرض المبدلتين ؛ مصداقاً لقوله تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فما دامت السموات والأرض ستتبدل ، فالله سبحانه وتعالى يحدثنا عن السموات والأرض فى الآخرة ؛ غير حديثه عن السموات والأرض فى الدنيا . ولكن بعض السطحيين يقول : إن القرآن يتحدث عن بقاء المؤمنين فى الجنة ما دامت السموات والأرض ؛ ثم يقول :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) ﴾ [التكوير]

فكأن هذه الأرض التى نعيش فيها ، والسماء التى تظلنا ستُدمَّر يوم القيامة ، فلماذا يقول الحق :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ... (١٠٨) ﴾ [هود]

---

(١) وذلك من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ [الطور : ٩] ومعنى تمور أى تدور وتتحرك وتموج فى بعضها البعض .

فأين هو الخلود إذن ؟

نقول لهؤلاء : اقرأوا القرآن كله لتعرفوا أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ... (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فهذه الأرض هى أرض معاش وما فوقها من سماء هى سماء معاش ؛ ستتبدل بأرض مَعَاد ؛ لأن الأرض التى نعيش عليها فيها مقومات الحياة بالأسباب ، تزرع وتحصد وتصنع ، أما فى الآخرة فحياتك كلها بدون أسباب منك ؛ ولذلك ساعة يخطر الشيء على بالك تجده أمامك دون أن تتحرك أو تحرث أو تزرع أو تتحمل أى مشقة . أما هنا فى هذه الدنيا ، الأرض أرض المعاش تنعم فيها وتأخذ منها بقدر إمكاناتك ، ولكن أرض المعاد تأخذ منها بإمكانات الحق سبحانه وتعالى . ومهما ارتقت الدنيا وارتقت أسبابها ، لا يمكن أن تصل إلى أنك يخطر على بالك الشيء فتجده أمامك . وسبحانه يقول .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ فكأنه استثنى بعض الناس من الخلود .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ... (١٠٧) ﴾ [هود]

أى : أن الجنة والنار لهما خطان، وبمجرد أن يحاسب الإنسان ، إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فإن كان الذى يحاسب من الكفار أو المنافقين ، يكون بدء خلوده من أول لحظة دخل فيها النار ويبقى فيها خالداً. وأما إن كان الذى يُحاسب مؤمناً عاصياً ، فهو يدخل النار على قدر ما عمل من السيئات ، ثم بعد ذلك يدخل الجنة .

إذن : فالذى دخل النار أولاً حالتان : حالة أبدية وهم المنافقون والكفار ، وحالة مؤقتة وهم عصاة المؤمنين ، والخلود فى النار بالنسبة

لعصاة المؤمنين ناقص من الآخر ، أما الذين عملوا الصالحات فهم يدخلون الجنة ابتداء وخلوداً ، أما عصاة المؤمنين فلا يدخلون الجنة إلا بعد أن ينالوا جزاءهم من العقاب . وبذلك يكون خلود عصاة المؤمنين فى الجنة ناقصاً من البداية ؛ لأنهم لم يدخلوها بعد الحساب مباشرة ، وخلودهم فى النار ناقص من الآخر ؛ لأنهم لم يخلدوا فيها :

ويقول سبحانه : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أى : أن مساكن المؤمنين فى الجنة ستكون أيضاً جنات خاصة بها ، وكلمة ﴿عَدْنٍ﴾ ؛ مادتها العين والدال والنون معناها الإقامة . و« عَدَنَ فى المكان » ، أى أقام فيه . إذن : فهى جنات إقامة ؛ لأن هناك فارقاً بين أن تسكن فى فندق مثلاً ، أو فى مكان مؤقت ، وبين أن تقيم خالداً .

وحين يعطى الحق سبحانه للمؤمن بُشْرى بأشياء ، فهو يريد دائماً ألا ننسى أنها منسوبة إلى قدرته سبحانه ، والشىء يتناسب مع قدرة صاحبه أو فاعله . فالرجل الفقير حين يبنى مسكناً يكون المسكن متواضعاً ؛ مجرد حوائط تستر الإنسان ، أما صاحب الإمكانات الضخمة فيبنى قصراً كبيراً ، فإن كان واجد الوجود الأعلى هو الذى صنع ، فكل شىء إنما يتم على مقتضى قدرته وإمكاناته ؛ فهو الذى يمسك الأمور كلها ، ويأتى تنفيذه لأى شىء وفق ما يريد .

إذن : فالخلود فى جنات عدن خلود دائم ، وهى جنات يعلو فيها التنعيم لدرجة من علوها لا يحب الإنسان أن يتركها أبداً ؛ لأنها أعلى مراتب الجنة ولا يوجد أحسن منها . والإنسان حينما يكون بمكان فإنه لاينتقل منه إلا إذا زهد ما فيه ، فلو كان ما فى جنات عدن مما يُزْهَدُ فيه بعد فترة ما وصفها الله بهذا الوصف .

ولكى يصل الإنسان الى النعيم لابد من موجد لهذا النعيم وهو الله سبحانه وتعالى ، وما يتمتع الإنسان به وهو الجنة ، والمُنْعَمُ عليهم بالنعمة ،

وهم المؤمنون والمؤمنات . ومن أطاع الله طمعاً فى الحصول على نعيم الله فى الآخرة ، يأخذ هذا النعيم . والذى أطاع الله لذات الله ، ولأنه سبحانه وتعالى يستحق أن يعبد لذاته ويطاع ، يكون فى الآخرة مع التعظيم والتكريم والمحبة واللقاء بالمُنْعِم.

إذن : فكل إنسان لما عمل له ، فإذا زادت عبادتك عما فرض الله عليك ، وأحببت أن تكون دائماً فى لقاء مع الله ، بأن تقوم الليل وتتهجد، وتقرأ القرآن وتصلى والناس نيام ، وتتقن العمل الذى ترتقى به حياتك وحياة غيرك ، وتفعل ذلك محبة فى الله الذى يستحق التعظيم ، فأنت تستحق المنزلة الأعلى ، وهى أن تكون فى معيّة الله . ويقول سبحانه[1] :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

والحق سبحانه وتعالى يتجلى على أهل الجنة فترات ، ويتجلى على أهل محبوبية ذاته دائماً[2] ، وعندما يتجلى الحق سبحانه على أهل الجنة ويقول : « يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون :

---

(١) انظر إلى جمال هذا الموقف ، المؤمنون قد تنعموا بنعيم الجنة فى قصورها وبنسائها وأنهارها وفاكهتها ولحوم طيرها، وبلبنها وعسلها ومائها وخمرها ، حتى أنك ترى فى وجوههم آثار هذا النعيم ، فها هى ذى وجوههم نضرة تمتلىء بهاء وجمالاً وصفاء ، وهم على هذه الحالة ينظرون إلى وجه الرحمن سبحانه خالق الخلق ، مالك الملك ، يفيض عليهم من نوره ، وبهائه ورحماته ورضوانه ، كل الوجوه ناظرة إلى الله ، عبدوه سنين الدنيا ولم يروه ، وها هم يرونه ، فسبحان المنعم الوهاب .

(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « وإن أفضلهم منزلة لينظر إلى وجه الله كل يوم مرتين » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٣) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٥/ ٨٧) وأخرجه أحمد أيضاً (٢/ ٦٤) والترمذى فى سننه (٣٣٣٠) بلفظ « وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية » قال الترمذى : حديث غريب .

يارب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً » [1].

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن تحدث عن المتعة والنعيم والجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، والمساكن الطيبة التى فى جنات عدن . أوضح سبحانه أن هناك شيئاً أكبر من هذا كله ، وهو رضوان الله فى قوله تعالى :

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ فالذى عمل للجنة يعطيه الله الجنة ، والذى عمل لذات الله يعيش فى معية الله سبحانه.

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله:

﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ فما هو المقصود بالفوز العظيم ؟ لقد تقدمت أشياء كثيرة ؛ تقدمت جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وجنات عدن ، ومساكن طيبة ، ورضوان الله ، فأيها هو الفوز العظيم ؟

نقول : كلها فوز عظيم ، فالذى فاز بالنعيم الأول فى الجنة أخذ فوزاً عظيماً ، والذى فاز بالمساكن الطيبة فى جنات عدن أخذ فوزاً عظيماً ، والذى أخذ رضوان الله يكون قد أخذ الفوز الكبير والعظيم.

ونلحظ أن القرآن حين يعرض منهج الله ، فهو لا يتحدث عن الجزاء فى باب منفصل ، والمنهج فى باب منفصل ، بل يجمع بين المنهج والجزاء وبين الوعد والوعيد ؛ لأنه ساعة يصف لى الجنة وما فيها من نعيم ، لابد أن ينبهنى إلى المنهج الذى يوصلنى إليها . وحين يعطينى صورة من المنزلة العالية التى تنتظر المؤمن فى الآخرة ، لابد أن ينبهنى - أيضاً - إلى العذاب الذى ينتظر المنافق والكافر ؛ حتى أتجنب الطريق الذى يؤدى بى إلى النار والعياذ بالله.

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٤٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٩) عن أبى سعيد الخدرى .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى بعد أن حدثنا عن جنته ورضوانه يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ ﴾

إذن: فبعد أن ذكر الحق لنا الجنة وما فيها ، وما يجعل النفس مشتاقة إلى الجنة ، فهو يُذكِّرنا بما يجب علينا أن نفعله لخدمة منهج الله - ولله المثل الأعلى - مثلما تقول لابنك : عندما تتخرج طبيباً ستكون لك عيادة كبيرة ثم مستشفى ، وترتقى معه فيما ينتظره من مستقبل كبير ، وتُذكِّره بضرورة أن يجتهد فى المذاكرة حتى يصل إلى ما يتمناه . وبذلك تكون قد حبَّبته فى الغاية التى سيصل إليها ، ثم انتقلت لتحببه فى الوسيلة التى ستوصله إلى هذه الغاية .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ والحق جلَّ وعلا يخص رسوله ﷺ بالتكريم والتعظيم ، فلم يُناده باسمه . بل قال[1] : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ وفى مواقع أخرى يناديه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ .

ولكن النداء من الحق لباقى الأنبياء ، يكون مثل قوله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ... ٣٥ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى:

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ ... ٤٨ ﴾ [هود]

---

(١) ورد نداء رسول الله ﷺ بـ ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ١٣ مرة فى القرآن ، أما نداء ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ فقد ورد مرتين فقط .